

المـحاضرة الرابـعة: شـبهـات حول الدـعـوة ووجـوبـها

تـذـرع البعض بشـبهـات عـدة لـتسـويـغ قـعودـهم عن الدـعـوة إـلـى الله تعالـى، أو تـحـيـيدـها وـحـصـرـها فـي جـوـانـب معـيـنة، وـفـيـما يـأتـي أـبـرـز هـذـه الشـبـهـات^(١) معـ الجـواب عـلـيـها:

الـشـبـهـة الأولى: إـنـّ مـعـنى الدـعـوة يـقـنـصـر عـلـى التـبـلـيـغ وـالـبـيـان:

هـنـاك مـنـ قـصـر مـعـنى الدـعـوة عـلـى التـبـلـيـغ وـالـبـيـان فـحـسـبـ، وـنـظـر إـلـى التـعـلـيم وـالـتـطـبـيق عـلـى أـنـهـا أـمـور خـارـجـة عـن الدـعـوة، مـسـتـدـلاً عـلـى زـعـمـه بـقولـه تعالـى: «مـا عـلـى الرـسـوـل إـلـا الـبـلـاغ» [المـائـدة: ٩٩]، وـقـولـه تعالـى: «وـمـا عـلـى الرـسـوـل إـلـا الـبـلـاغ الـمـبـيـن» [الـنـور: ٥٤]، وـنـحـوـهـا مـنـ الـآـيـات الـكـرـيمـة، وـفـهـمـوا أـنـّ هـذـه الـآـيـات وـأـمـثـالـهـا تـحـصـرـ عملـ الرـسـل الـكـرـام وـالـدـعـاة فـي جـانـبـ التـبـلـيـغ فـقـطـ.

والـجـواب عـلـى هـذـه الشـبـهـة كـالـاتـي:

إـنـّ هـذـه الـآـيـات الـقـرـآنـية وـأـمـثـالـهـا وـرـدـت فـي سـيـاق إـعـرـاضـ النـاس عـن الدـعـوة، فـحيـث يـعـرـضـ المـدـعـوـون عـن الدـعـوة لـأـكـلـ الرـسـل وـالـدـعـاة إـلـا بـالـبـيـان وـالـتـبـلـيـغ فـقـطـ، وـلـو نـظـرـنـا فـي الـآـيـات نـفـسـهـا الـتـي اـسـتـدـلـ بـهـا لـهـذـه الشـبـهـة، لـرـأـيـنا مـعـظـمـهـا يـصـرـحـ بـهـذـهـ الـحـقـيـقـة، وـيـعـلـقـ حـصـرـ عملـ الرـسـوـل بـالـبـلـاغ عـلـى إـعـرـاضـ النـاس وـتـوـلـيـهـمـ، كـمـ جـاءـ فـي قـولـه تعالـى: «وـإـنـ تـوـلـوـا فـإـنـمـا عـلـيـكـ الـبـلـاغ وـالـلـه بـصـيرـ بـالـعـبـاد» [آلـ عمرـان: ٢٠]، «فـإـنـ تـوـلـيـتـمـ فـاعـلـمـوـا أـنـمـا عـلـى رـسـوـلـنـا الـبـلـاغ الـمـبـيـن» [المـائـدة: ٩٢]، «فـإـنـ أـعـرـضـوـا فـمـا أـرـسـلـنـاكـ عـلـيـهـمـ حـفـيـظـاً إـنـ عـلـيـكـ إـلـا الـبـلـاغ» [الـشـورـى: ٤٨].

أـمـا حـينـ يـسـتـجـيبـ المـدـعـوـون لـلـدـعـوة، وـيـقـبـلـ النـاس عـلـى الإـسـلام، فـعـلـى الدـاعـيـة تـعـلـيمـهـمـ دـيـنـهـمـ، وـالـسـعـيـ لـتـطـبـيقـ هـذـهـ الـدـيـنـ فـي حـيـاتـهـمـ، كـمـ كـانـ يـفـعـلـ النـبـي صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ مـعـ مـنـ اـسـتـجـابـ لـهـ فـي مـكـةـ الـمـكـرـمةـ، حـيـثـ كـانـ يـجـتـمـعـ بـهـمـ فـي دـارـ الـأـرـقمـ اـبـنـ أـبـيـ الـأـرـقمـ لـيـعـلـمـهـمـ دـيـنـهـمـ وـيـزـكـيـهـمـ، وـكـمـ كـانـ يـفـعـلـ إـذـ أـسـلـمـ شـخـصـ عـنـهـ، فـيـقـولـ لـأـصـحـابـهـ: ((فـقـهـوـا أـخـاـكـمـ فـي دـيـنـهـ، وـأـقـرـئـوـهـ الـقـرـآنـ))، رـوـاهـ الطـبـرـانيـ فـيـ الـكـبـيرـ.

^(١) بـقـيـةـ الشـبـهـاتـ يـقـدـمـهـاـ الطـلـابـ، كـتـقـارـيرـ.

وهكذا يكون الجمع بين دلالة هذه الآيات القرآنية مع دلالة الآيات والنصوص والموافق الأخرى التي نصَّتْ على أعمال الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من تلاوة لآيات الله تعالى، وتركيبة، وتعليم الكتاب والحكمة، كما تنسجم مع الواقع العملي لدعوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حياته، وواقع دعوة أصحابه وأتباعه من بعده.

الشبهة الثانية: إنَّ واجب الدعوة غير ملزم إلا للعلماء:

يتوهم البعض أنَّ واجب الدعوة إلى الله لا يلزمه؛ لأنَّه ليس من رجال الدين، وأنَّ هذا الواجب كفائيٌ يجب على العلماء فقط لا على الجميع، ثُمَّ يتحتاج بقوله تعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [آل عمران: ٤٠].

تقوم هذه الشبهة على أمرتين: الأول يتعلّق بكون الدعوة مشروطة بالعلم، ويتعلّق الثاني بالواجب الكفائي، وفيما يأتي الجواب على ذلك:

أ- التخلص من الدعوة بذرية كونها مشروطة بالعلم:

والجواب على ذلك:

لَا شَكَّ أَنَّ الدُّعَوَةَ مُشْرُوتَةٌ بِالْعِلْمِ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ شَيْئاً وَاحِدًا لَا يَتَجَزَّأُ لَا يَتَبَعَّضُ، وَإِنَّمَا هُوَ بِطَبِيعَتِهِ
يَتَجَزَّأُ وَيَتَبَعَّضُ، فَمَنْ عَلِمَ مَسْأَلَةً وَجَهْلَ أُخْرَى فَهُوَ عَالَمٌ بِالْأُولَى جَاهِلٌ بِالثَّانِيَةِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَذَّبُ مِنْ
جَمْلَةِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَسْأَلَةِ الْأُولَى، وَبِالْتَّالِي يَتَوَفَّ فِيهِ شَرْطُ وَجُوبِ الدُّعَوَةِ إِلَى مَا عَلِمَ دُونَ مَا جَهَلَ، وَلَا
خَلَافٌ بَيْنَ الْفَقَهَاءِ أَنَّ جَهَلَ شَيْئاً أَوْ جَهَلَ حَكْمَهُ أَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الدَّاعِي
شَرْطٌ لِصَحَّةِ الدُّعَوَةِ، وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَعْلَمُهُ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ فَسادُ قَوْلِ مِنْ
قَالَ: إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْعُلَمَاءِ هُمُ الَّذِينَ نَالُوا حَظًّا كَبِيرًا مِنْ الْعِلْمِ دُونَ سُواهُمْ، وَقَدْ يَسْمُونُهُمْ بِ"رِجَالِ الدِّينِ"،
مَعَ أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ يَصُدِّقُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَكُلُّ مُسْلِمٍ هُوَ مِنْ رِجَالِ دِينِ الإِسْلَامِ، فَلَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى
فَتَةِ الْمُتَخَصِّصِينَ مِنْهُمْ، بَلْ نَسْمِيهِمْ: عُلَمَاءُ، فَقَهَاءُ، مَجْتَهَدُونَ.

بـ- التناصل من الدعوة بحجة كونها واجباً كفائياً ومن ثمّ هي تجب على العلماء فقط:

والجواب على ذلك:

إن الدعوة إلى الله تعالى حتى لو قلنا: إنها من فروض الكفاية، أي: إذا أقامه البعض سقط التكليف عن البعض الآخر، فهو في الأصل واجب على جماعة المسلمين، وعليهم أن يعملوا لتحقيق هذا الفرض،

وشرط الخروج من عهدة الفرض الكفائي حصول الكفاية بمن يقوم به، ولما كانت الكفاية غير حاصلة، فعلى القادر فعلاً أن يقوم بهذا الفرض مباشرة، فقوله تعالى في الآية: «وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ»، يعني: أن يقوم المسلمون بإعداد هذه "الأمة"، أي: الجماعة المتصدية للدعوة إلى الله، وأن يعاونهم غيرهم بكل الوسائل ليتحقق المقصود من قيامهم، وهو إقامة دين الله ونشر دعوته، فإن لم يفعل المسلمون ذلك أثم الجميع، المؤهل للدعوة وغيره، فيجب أن يقوم بهذا الواجب كل مسلم حسب قدرته، لا سيما في زماننا، فقد عمَّ الفساد بين المسلمين وزادت الهوة بينهم وبين دينهم، وكذلك لا يزال الشرك والوثنية والجاهلية تغشى مجتمعات بشريَّة كثيرة في أفريقيا وأمريكا، وغيرها من أقطار الأرض المختلفة، ونشر الدعوة إلى الله في هذه المجتمعات الجاهلية يحتاج إلى جهود جبارة يشترك فيها المسلمين جميعاً كُلُّ حسب استطاعته، بما له أو تعليمه، أو بفكره، أو بسلطانه.

الشَّبَهَةُ التَّالِثَةُ: إِنَّ الْمَرءَ مَعْفُوٌ مِنَ الدِّعَوَةِ مَا دَامَ فِي نَفْسِهِ صَالِحًا مَهْتَدِيًّا:

وقد يتثبت البعض بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» [المائدة: ١٠٥]؛ ليتصَّلَّ من واجب الدعوة إلى الله، وبيرر قعوده وتقاعسه، متوهماً أنَّ الآية تُعفيه من تكليف الدعوة إلى الله ما دام هو في نفسه صالحًا مهتدِياً.

والجواب على ذلك:

إنَّ هذا الوهم تسرُّب إلى البعض في عهد خليفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه خطب في الناس وقال: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير ما وضعها الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: ((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَهُمْ، فَلَمْ يُنْكِرُوهُ، يُوشِّكُ أَنْ يَعْمَلُهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ)).

ثم إنَّ في الآية نفسها ما يُؤكِّد وجوب الدعوة إلى الله تعالى على كل مسلم، وينفي الوهم الذي يتثبت به القاعدون، ذلك أنَّ الله تعالى قال في الآية: «إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»، والإهتداء إنما ينتَهُ بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضالين.

الشـبهـةـ الـرابـعـةـ: إـنـ الدـعـوـةـ لـمـ تـنـفـعـ شـيـئـاـ لـأـنـ الـبـاطـلـ اـنـتـشـرـ فـيـ الـأـرـضـ:

ومن الشـبهـاتـ أـيـضاـ زـعمـهـمـ: إـنـ الـبـاطـلـ اـنـتـشـرـ فـيـ الـأـرـضـ، وـلـمـ تـنـفـعـ شـيـئـاـ، وـعـلـىـ
الـمـسـلـمـ أـنـ يـهـتـمـ بـخـاصـةـ نـفـسـهـ وـيـدـعـ أـمـرـ الـخـلـقـ.

والجواب على ذلك:

إـنـ الـواـجـبـ عـلـىـ الـمـسـلـمـ هـوـ الـقـيـامـ بـوـاجـبـ الدـعـوـةـ إـلـىـ الـلـهـ، سـوـاءـ حـصـلـ المـقصـودـ وـاسـتـجـابـ النـاسـ أـمـ
لـمـ يـسـتـجـيبـوـاـ، وـقـدـ حـصـلتـ هـذـهـ الشـبـهـ لـأـقـوـامـ سـالـفـينـ قـصـرـ اللـهـ تـعـالـىـ لـنـاـ مـنـ أـخـبـارـهـ، وـكـيـفـ أـنـ الدـعـاـةـ إـلـىـ
الـلـهـ رـدـوـاـ عـلـىـهـمـ شـبـهـتـهـمـ، قـالـ تـعـالـىـ: «وـإـذـ قـالـتـ أـمـمـةـ مـنـهـمـ لـمـ تـعـطـوـنـ قـوـمـاـ اللـهـ مـهـلـكـهـمـ أـوـ مـعـذـبـهـمـ عـذـابـاـ
شـدـيدـاـ فـالـوـاـ مـعـذـرـةـ إـلـىـ رـبـكـمـ وـلـعـلـهـمـ يـتـقـونـ» فـلـمـ نـسـوـاـ مـاـ ذـكـرـوـاـ بـهـ أـنـجـيـنـاـ الـذـيـنـ يـنـهـيـونـ عـنـ السـوـءـ
وـأـحـذـنـاـ الـذـيـنـ ظـلـمـوـاـ بـعـذـابـ بـكـيـسـ بـمـاـ كـانـوـاـ يـفـسـقـونـ» [الأعراف: ١٦٤-١٦٥]، وـالـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ تـشـيرـ إـلـىـ
أـهـلـ قـرـيـةـ صـارـوـاـ ثـلـاثـ فـرـقـ: فـرـقـةـ اـرـتـكـبـتـ الـمـعـاـصـيـ، وـفـرـقـةـ أـنـكـرـتـ عـلـيـهـمـ وـوـعـظـهـمـ، وـفـرـقـةـ سـكـنـتـ عـنـهـمـ
فـلـمـ تـفـعـلـ وـلـمـ تـنـهـ، وـلـكـنـهاـ قـالـتـ لـلـمـنـكـرـةـ: «لـمـ تـعـطـوـنـ قـوـمـاـ اللـهـ مـهـلـكـهـمـ أـوـ مـعـذـبـهـمـ عـذـابـاـ شـدـيدـاـ» أـيـ: لـمـ
تـنـهـوـنـ هـؤـلـاءـ وـقـدـ عـلـمـتـ أـهـمـ قـدـ هـلـكـواـ وـاسـتـحـقـواـ الـعـقـوبـةـ مـنـ اللـهـ، فـلـاـ فـائـدةـ فـيـ نـهـيـكـمـ إـلـيـاهـمـ، فـقـالـتـ الـفـرـقـةـ
الـمـنـكـرـةـ، بـالـجـوابـ الصـحـيـحـ: «مـعـذـرـةـ إـلـىـ رـبـكـمـ» أـيـ: فـيـماـ أـخـذـ عـلـيـنـاـ مـنـ وـاجـبـ الـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـيـ
عـنـ الـمـنـكـرـ، فـنـحـنـ نـعـذـرـ إـلـىـ رـيـنـاـ، لـاـ نـمـلـكـ إـلـاـ أـنـ نـدـعـوـ هـؤـلـاءـ الـعـصـاةـ لـلـإـقـلاـعـ عـنـ مـعـصـيـتـهـمـ وـالـإـنـابـةـ
إـلـىـ رـبـهـمـ «وـلـعـلـهـمـ يـتـقـونـ» أـيـ: وـلـعـلـ هـذـاـ إـلـنـكـارـ عـلـيـهـمـ، وـدـعـوـتـنـاـ إـلـيـاهـمـ لـلـإـنـابـةـ إـلـىـ رـبـهـمـ وـالـرجـوعـ إـلـيـهـ،
يـدـعـهـمـ لـلـاسـتـجـابـةـ، وـفـيـ هـذـاـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـهـ مـاـ دـامـ هـنـاكـ اـحـتمـالـ قـبـولـ الدـعـوـةـ فـلـاـ بـدـ منـ اـسـتـمـارـ الـوعـظـ
وـالـإـرـشـادـ وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ؛ لـيـحـيـاـ مـنـ حـيـ عـنـ بـيـنـةـ، وـبـهـلـكـ مـنـ هـلـكـ عـنـ بـيـنـةـ.

وـآـخـرـ دـعـوـانـاـ أـنـ الـحـمـدـ اللـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ
وـصـلـىـ اللـهـ وـسـلـمـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ أـجـمـعـيـنـ